﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

[الأحزاب: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

توجيهُ الرسول والمؤمنين إلى ما يُعينُ على الإعراضِ عن الكافرين

لمّا خُتمت سورةُ السجدة بأمر الرسول ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظارِ ما يحكمُ به فيهم ربُّ العالمين سبحانه، في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة: 30]، بعد تحقيق أنّ تنزيلَ الكتاب مِنْ عند المُدَبِّر لهذا الخلق كلِّه، والنّهي عن الشكِّ في لقائه: افتتح هذه السورةَ بأمر النبيِّ بأساس ذلك والمعينِ عليه، وهو التقوى؛ ثم عطف عليه النهيَ عن طاعة المُخالفين، مُجاهرين كانوا أو مُتَساترين، والأمرَ باتّباع الوحي الذي أعظمُه الكتابُ، تنبيهًا على أنّ الإعراض إنّما يكون طاعةً لله مع مراعاةِ تقواه[1]؛ ثمّ أمره أيضًا بما يعين على تحمّل الأعباء، ويقوّيه في مواجهة الضغوط والأزمات، وهو التوكُّل على الله القادرِ على أن يكفيَ مَنْ توكَّل عليه ويرعاه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُطِعِ﴾: (طوع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الإِصْحابِ والانْقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انْقادَ مَعَهُ ومَضَى لِأَمْرِهِ؛ وأطاعَهُ بِمَعْنَى طاعَ لَهُ؛ ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[2]، ويُعَرَّف الطَّوْعُ بأنّه: الانقيادُ، ويضادّه الكَره[3]، قال تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 273 بتصرف.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) الفراهيدي، العين: (طوع).

[فصلت: 11]؛ والطّاعَةُ مثله لكنّها أكثر ما تقال في الائتمار لِما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: 21][1]، ومعناه في الآية ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: لاتفعلْ ما يأمرونك به أو يطلبونه منك.

2) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: (وحي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقاءِ عِلْمٍ في إِخْفاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ؛ وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فَهوَ وَحْيٌ كَيْفَ كانَ[2]، والوحْي يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتّعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قولُه تعالى عن زكريّا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11]، فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: أشارَ، وقيل: كَتَبَ[3]، والمقصود في الآية ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾: ما يَتَضَمَّنُه القرآنُ الموحَى به مِن أوامرَ ونواهٍ، وكلّ ما يأتيك من عند الله.

3) ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ - ﴿وَكِيلًا﴾: (وكل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أَمْرِكَ؛ مِنْ ذَلِكَ الوُكَلَةُ، يَقولونَ وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، والتَّوَكُّلُ مِنْهُ، وهوَ إِظْهارُ العَجْزِ في الأَمْرِ والاعْتِمادُ عَلَى غَيْرِكَ[4]، والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين، أحدهما: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيت له، والآخر: وكَّلْتُهُ فَتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدتُه، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: 51]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3][5]؛ ما يفيد أن معنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد عليه، ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: أي كافيًا ومعينًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبدأ الآيات الكريمة في مطلع سورة الأحزاب بنداء رسول الله ﷺ بوصف النبوّة، تقديرًا لشأنه وتفخيمًا لقدره، وتوجيهًا إلى أهمّيَّة ما يأتي بعد النداء مما يعين على استمرار إعراضه عن الكافرين، من أمرٍ بالمداومة على تقوى الله تعالى والخوف منه، والاستمرارِ في عدم طاعة الكافرين والمنافقين فيما يطلبون ويرغبون ويزيّنون،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (طوع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحى)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (وحى).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (وحى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل)، وابن منظور، لسان العرب: (وكل).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (وكل).

والاستعاضةِ عن كلامهم وآرائهم بوحي اللّه تعالى المشتمل على ما فيه مصلحة الرسول ومصالحُ أمَّته، مع ضرورة الثبات والاستمرار في التوكّل على اللّه تعالى في كلِّ الأمور، لأنَّه سبحانه القادرُ على كفايته، وكفاية كُلِّ مَنْ يتوكل عليه، وإعطائهم جميعَ ما يرغبون[1].

نهيٌ مَحوطٌ بما يُعينُ عليه ويُساعدُ في القيامِ به

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (يا) ونكتة نداءِ القريب بها:

الخطابُ الذي يأتي بعد حرفِ النداء مَعْنيٌّ به جِدًّا

(يا) في قول اللّه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ حرفُ نداءٍ يستعمل للبعيد، وهو أكثرُ حروف النداء استعمالًا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها؛ وقد يُنادى بها القريب توكيدًا[2]، وفي الكشّاف: "(يا) حرف نداء، وُضع في أصله لنداء البعيد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المُؤذِن بأنَّ الخطابَ الذي يَتْلوه مَعْنِيٌّ به جِدًّا"[3]، ففي النداء تمهيد وتوطئة للإقبال على خطاب الرَّسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة.

أهمّ أغراض السّورة: أحوال النبي، وتوجيهه بتأدية مراد ربّه على أكمل وجهٍ

وافتتاح السّورة بنداء النبي ﷺ مُؤْذِن بأنَّ الأهمَّ من سَوق هذه السورة يخصُّ أحوال النبيّ ﷺ، وقد نودي فيها خمسَ مرّات في افتتاح أغراضٍ مختلفة من التشريع، بعضها خاصّ به، وبعضها يتعلّق بغيره وله ملابسة له: فالنداء الأوّل: لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربّه؛ والنداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه؛ والنداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلّبات شؤون رسالته في معاملة الأمة؛ والنداء الرابع: في طالعة غرض أحكام تزوّجه وسيرته مع نسائه؛ والنداء الخامس: في غرض تبليغه آدابَ النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 169 وما بعده بتصرف.
(2) ابن هشام، مغنى اللبيب: 2/ 429.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.

وفي هذا النداء الأوّل افتتح به الغرضَ الأصليَّ لبقيَّة الأغراض، وهو تحديد واجباتِ رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداءُ الدين أعمالَه[1]؛ ففي هذا النداء التهيئةُ والتوجيهُ إلى أهمّيَّة ما يأتي بعد النداء من أوامرَ ونواهٍ، لا سيما النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، لِما في النّهي من معاني الزجر التي تحتاج إلى التمهيد بالملاطفة والمؤانسة[2].

سرّ النداء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

حَثُّ النّاسِ على فِعل الأمور العظام يقتضي نداءَهم بالآكَدِ الأبْلَغِ

(أيّ) في قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اسمٌ مبهمٌ مُفتقِرٌ إلى ما يوضّحه ويُزيل إبهامَه، ولا يُعلم المقصودُ بالنداء إلّا بإردافه نعتًا يُزيل إبهامَه، ودخول (ها) على نعت (أيّ) في النداء توجب التنبيه على أنَّه المقصود بالنداء؛ وهي في هذه الصيغة تعاضِدُ حرفَ النِّداء وتُقَوّيه، فتزيدُه قوّةً وتأكيدًا[3]، والسرُّ في كثرة النداء بهذه الصيغة في كتاب الله المجيد: هو استقلالُها بأوجهٍ من التأكيد وأسبابٍ من المبالغة، لأنّ كلّ ما نادى الله له عباده – مِن أوامره، ونواهيه، وعِظاته، وزواجره، ووعده، ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغيرِ ذلك ممّا أنطق به كتابه – أمورٌ عِظام، وخطوبٌ جسام، ومعانٍ عليهم أنْ يتيقّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، إذ هم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكَد الأبلغ[4]؛ وتأدية مراد الله تعالى على وجهه الأتمّ، بالإعراض عن الكافرين، والمداومةِ على تقوى الله تعالى، وعدمِ طاعة الكافرين والمنافقين في مطالبهم، والاكتفاءِ بالوحي الإلهيّ، والتوكّلِ على الله تعالى من عِظام الأمور، لأنّها تحدّد طريق الهداية الأكمل، وسبيلَ الرشاد الأمثل، الموصِلَين إلى الفلاح.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 249.
(2) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 304.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 403، والهروي، الأزهية، ص: 107.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/ 90.

فائدة تعريف ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وموقعه من الإعراب:

المقصودُ بالنداء هو الرسولُ، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين

تعريف ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ بـ(أل) في قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ لتعريف العهد؛ وهي تدل على أنّ المقصود الأوّل بهذا النداء هو رسول الله ﷺ، ثمّ يأتي بعده بالتبعيّة جميعُ أفراد أمّته، وليس المَعْنيُّ بالنداء جنسَ الأنبياء والمرسلين، وكلمة ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ تعرب صفةً أو بيانًا لـ(أيّ)، وهي تابعةٌ له في الإعراب بالضمّ.

أغراض النداء بوصف النبوّة:

خطاب النبي ملاطفةٌ وتكريم وتذكيرٌ بمهام النبوة وتعليمٌ بطريقة خطابِه

نودي الرسولُ محمّدٌ ﷺ في القرآن بوصف النبوّة - كما في قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ - لأغراضٍ كثيرةٍ، منها ملاطفتُه ﷺ ومؤانستُه بالإقبالِ عليه وندائِه بما يفيد تفخيمَه وتوقيرَه، وتكريمُه والتحبُّبُ إليه، لندائه بصيغة تجمع معانيَ التنبيه والإثارة والتشويق إلى صفته التي اختاره الله تعالى لها، وهى النبوّة؛ ومنها تذكيرُه ﷺ بمَهامِّ النُّبوّة ومتطلّباتها، وإعلامُه وإعلامُ المسلمين بأهمّيَّة الأمور التي يُنادَى لأجلها وخطورتها؛ ومنها تعليمُ الأمّة كيفية مخاطبة الرسول ﷺ، وتوجيهُهُم إلى الطريقة التي ينادونه بها[1].

تشريفُ النبي عن أن يُخاطبَ بما يُخاطبُ به غيرُه

ونداء النبي ﷺ في الآية بوصف النبوّة دون اسمه العلَم تشريفٌ له بفضل هذا الوصف، ليربأ بمقامه عن أن يُخاطب بمثل ما يُخاطب به غيرُه؛ ولذلك لم يُنادَ في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أو ﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 67]، بخلاف الإخبار عنه، فقد يجيء بهذا الوصف، كقوله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التحريم: 8]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: 30]، وقد يجيء باسمه العلَم، كقوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40]، بل قد يتعيّن إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة، كقوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29]؛ وتلك مقاماتٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 518، بتصرف.

يقصد فيها تعليم الناس بأنّ صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقينٌ لهم بأن يسمّوه بذلك ويَدْعوهُ به، فَإنَّ عِلْمَ أسْمائِهِ منَ الإيمانِ، لئلا يَلْتَبِسَ بِغيرِه[1].

مِنْ عادةِ القرآن الكريم التعبيرُ بما يُؤانِسُ الرسولَ قبل الأمر والنهي

وفي نداء الرسول ﷺ بوصف النبوة احتراسٌ وجَبْرٌ لِما يوهِمُه الأمرُ بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين[2]، "جريًا على عادة القرآن الكريم في التعبير بما يُؤانِسُ الرسول ويُزيل ما قد يعلَقُ في نفسه بسبب الأمر أو النّهي أو العتاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: 73]، وقوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: 1 - 2]، وقوله سبحانه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: 43]"[3].

اختلاف القراءات في كلمة ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وتوجيهها:

مِنْ عادةِ القرآن الكريم التعبيرُ بما يُؤانِسُ الرسولَ قبل الأمر والنهي

قرأ نافع لفظ (النبيّ)، وما جاء منه (النبيّون، والنبيّين، والأنبياء، والنبوّة) حيث وقع في القرآن بالهمز: ﴿ٱلنَّبِيٓءُ﴾، وقرأ الباقون بغير همز[4]، فالحجّة لمن همز أنّه أخذه من قوله: (أَنْبَأَ بالحَقِّ) إذا أخبَرَ به، ومنه: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: 31]، والحجّة لمن ترك الهمز أن الهمز مستثقل في كلام العرب فخفّفوه، والثاني: أنّه مأخوذ من النَّبْوَةِ وهي: ما ارتفع من الأرض وعلا؛ لأنّه أخبر عن العالم العلوي، وأتى به عن الله تعالى[5]، وعلى كلا الاشتقاقين من النُّبوِّ بمعنى الارتفاع والسمو، أو من النَّبَأِ، وهو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، يمكن الأخذ بهما جميعًا في آن واحد، وإن كان الاشتقاق الثاني جديرًا بالعناية لسَعة دلالته، وبالنظر في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 249.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 142.
(3) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 312.
(4) ابن الجزري، النشر: 01/ 406.
(5) ابن خالويه، الحجة، ص: 80.

النصوص القرآنية، سنلاحظ أنَّ جميع دلالات هذين الاشتقاقين قد اعتمدت فيها بصورة واضحة، فاشتقاق كلمة (نبيّ) من النُّبوِّ، يدلّ على اكتساب مقام النبوة الرفيع، الأمر الذي جعل صاحب هذا المقام يستحق عند بارئه لقب نبي، وأما اشتقاق كلمة (نبيّ) من النَّبَأِ، فيعني الخبر الصادق ذا الشأن العظيم، فكلمة (نبيّ) من هذا المصدر تشير إلى العلوم اللّدنية، والأنباء الهامة ذات الشأن العظيم التي يتلقاها الشخص الذي يبلغ مقام النبوة العلي.

توجيه متشابه الافتتاح بالنداء:

السورُ الثلاثُ تهتمُّ بأمورٍ تخصُّ الرسولَ والأسرةَ والمجتمعَ

افتتح النظمُ الكريمُ سورةَ الأحزاب وسورةَ الطلاق وسورةَ التحريم بنداء النبوّة، فقال في أوّل الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقال في مفتتح الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: 1]، وقال في مطلع التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم: 1]، وثمّة وشائجُ وعلاقاتٌ تجمع بين السور الثلاث، أدّت إلى افتتاحها بنداء النبوة، منها: اهتمامُ هذه السور بالدعوة إلى توقير النبي ﷺ وإنزاله المنزلةَ اللائقة به، سواءً على مستوى المجتمع، أو بين أصحابه، أو في داخل بيته بين نسائه؛ ومنها: معالجتُها قضايا وأحداثًا تخصُّ الأسرة المسلمة على مستوى الرجل والمرأة والأبناء والبنات؛ ومنها كذلك: الحديثُ عن مفاهيمَ وقيمٍ تخصُّ المجتمع المسلم، وتعمل على ترسيخها فيه.

الدوام على تقوى الله يُعين على التزامِ الأوامر واجتنابِ النّواهي

دلالة الأمرِ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

أُمِر النّبي ﷺ في مُفتتح السورة وقَبلَ النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين وغيرها من الأوامر بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ - التي تعني الخوفَ من الله تعالى، والتزامَ أوامره واجتنابَ نواهيه

– لأنّها المعينُ على ما يأتي بعد ذلك من نواهٍ وأوامرَ، فالمُداومة على التحلّي بها ممّا يساعد على تحمّل المهام الثّقال، والمرادُ بالتّقوى المأمورِ به: الثباتُ عليهِ والدوام، والازديادُ منه؛ فإنَّ له بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مداه، إذ متى أُمر أحدٌ بشيء هو به متلبّس فإنّما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية[1].

دلالة عطفِ ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ بالواو:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ لعطف النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين على الأمر بالتقوى، عطفَ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ المعطوفُ داخلٌ في المعطوف عليه، الذي يتَّسع ليشملَه ويشملَ غيرَه من النَّواهي والأوامر، وتحرير ذلك أن عدم طاعة الكافرين والمنافقين مسارٌ لتمثّل التقوى سلوكًا في المعاملات، وفي مهامّ الرّسالة والتبليغ.

عـــدم طـاعـة الـكـافـريـن والمنافقين مسارٌ لتمثُّل التقوى سُلوكًا

وعُطفَ الخاصُّ على العام لِسَعَةِ مصطلح التقوى وشمولِه كلَّ الأوامر والنواهي، "وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهي عن طاعتهم ويؤكّده، وكأنّه سبحانه نهى عن طاعتهم مرتين، مرّة عن طريق العموم ومرّة عن طريق التفصيل..، وهذا التحذير آيةٌ من آيات الله، فإن تاريخ الإسلام كله يشهد بأنّهم أعداءٌ حاقدون، يتربّصون به في كل حين، وإنْ لبسوا ثياب الأصدقاء الناصحين"[2].

خَطَرُ الكافرين والمنافقين يستدعي تأكيدَ النّهي عن طاعتِهم بأكثرَ مِن أسلوبٍ

الغرضُ من النّهي ﴿وَلَا تُطِعِ﴾:

أشعر النّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ "أنَّ تَشْريعًا عَظيمًا سَيُلْقَى إلَى النبي ﷺ، لا يَخْلو مَنْ حَرَجٍ عليه وعَلَى بَعْضِ أُمَّتِه، وأنَّهُ سَيَلْقَى مَطاعِنَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ"[3]، وفي النهي أيضًا حثٌّ للنبيّ ﷺ وإثارتُه إلى المداومة على عدم طاعتهم،

توجيهٌ لما يتعلّق بمقام النبوّة من العداوة والمطاعن

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 367، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.
(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

وعدم الإصغاء لكلامهم، أو التماسِ النُّصح والمشورة منهم، لانعدام صدقهم، وتحقّق مكرهم وكيدهم للإسلام والمسلمين.

بلاغة القصر في جملتَي الأمر والنّهي:

تـأكـيـدُ حصر الـتـقـوى في التعلّق بالله تعالى دون غيره

في جملتَي الأمر بتقوى الله تعالى، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: قصرٌ غيرُ اصطلاحيٍّ، لأنّ مرادَهما: "قَصْرُ تَقْواهُ عَلَى التَّعَلُّقِ بِالله دونَ غَيْرِهِ، فَإنَّ مَعْنَى (لا تُطِعِ) مُرادِفٌ مَعْنَى: (لا تَتَّقِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ)، فَإنَّ الطّاعَةَ تَقْوَى؛ فَصارَ مَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ مُفيدًا مَعْنَى: (يا أيُّها النَّبيُّ لا تَتَّقِ إلّا الله)، فَعَدَلَ عَنْ صيغَةِ القَصْرِ، وهيَ أشْهَرُ في الكَلامِ البَليغِ وأوْجَزُ، إلَى ذِكْرِ جُمْلَتَيْ أمْرٍ ونَهْيٍ، لِقَصْدِ النَّصِّ عَلَى أنَّهُ قَصْرٌ إضافيٌّ أُريدَ بِهِ أنْ لا يُطيعَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ لأنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَى أنْ يُقالَ: (لا تَتَّقِ إلّا الله) لَما أصاخَتْ إلَيْهِ الأسْماعُ إصاخَةً خاصَّةً، لأنَّ تَقْوَى النَّبيِّ ﷺ رَبَّهُ أمْرٌ مَعْلومٌ، فَسَلَكَ مَسْلَكَ الإطْنابِ لِهَذا... فَإنَّ أصْلَ صيغَةِ القَصْرِ أنَّها مُخْتَصَرَةٌ مِنْ جُمْلَتَيْ إثْباتٍ ونَفْيٍ"[1].

مـآلُ التشهير بعدم الطاعة الـيـأسُ من المكايدة

أصل صيغة القصر أنّها مختصرة من جملتَيْ إثباتٍ ونفي، ولكون جملة ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ كالتكملة للتي قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: عُطفت عليها لاتّحاد الغرض منهما، وقد تعيّن بهذا أن الأمر والنهي ههنا مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أن تشريعًا عظيمًا سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمّته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، وفائدة هذا القصر: التّشهير لهم بأنّ النبيّ ﷺ لا يقبل أقوالهم، لِيَيْأسوا من ذلك، لأنّ المنافقين كانوا يدبّرون مع المشركين المكايدَ، ويظهرون أنّهم ينصحون النبي ﷺ، ويلحّون عليه بالطلبات نصحًا تظاهرًا بالإسلام[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250 - 251.

نوع (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾:

الكافرون والمنافقون متوافقون على الكيد للإسلام والمسلمين إلى يوم الدين

قد يُراد بالكافرين في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾: المجاهرون بالكفر، لأنّه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن؛ ويجوز أن يكونوا اليهود، ولو حُمل على ما يعمّ نوعي الكافرين المجاهرين لم يكن بعيدًا[1]، وعلى هذا فـ (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ لتعريف الجنس، والمعنى: (لا تطعْ أحدًا من الكافرين والمنافقين)، ولا تستمعْ إليهم، ولا تطلبِ المشورةَ والنصحَ من أحدهم، فكلُّهم متماثلون متشابهون متوافقون على الإضرار بك وبأتباعك إلى يوم الدين.

نكتة عطف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ على ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

المنافقون كافرون وإنْ أعلنوا الإسلام وأدّوا شعائِرَه

في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ عطفُ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ على ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا العطف دلالةٌ على إلحاقهم بهم في حقيقة الكفر، وإن أعلنوا الإسلام، وأدّوا شعائرَه، وأظهروا المحبةَ والودّ، وزيّنوا كلامَهم بحرصهم على الإسلام والمسلمين، ولا يخفى أنّهم بذلك أشدُّ خطرًا وأعظم ضررًا؛ ولو اقتصر البيانُ القرآنيُّ الكريم على النّهى عن طاعة الكافرين لفُهم جوازُ الأخذِ بنصيحة المنافقين، ولا يخفى أنَّ ذلك غيرُ مراد، لِما فيه من إضرارٍ بالغٍ بالإسلام والمسلمين[2].

لا أحدَ يَطلبُ من النبي طاعتَه واتّباعَه غيرُ الكافرين والمنافقين

وخَصَّ البيان القرآنيُّ الكافرين والمنافقين دون غيرهما بالذكر لِوَجْهَيْن: أحَدُهُما أنَّ ذِكْرَ الغَيْرِ لا حاجَةَ إلَيْه، لِأنَّ غَيْرَهُما لا يَطْلُبُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ الاتِّباعَ، ولا يَتَوَقَّعُ أنْ يَصيرَ النَّبيُّ ﷺ مُطيعًا لَهُ، بَلْ يَقْصِدُ اتِّباعَهُ ولا يَكونُ عِنْدَهُ إلّا مُطاعًا؛ والآخَر أنَّ في قولِ اللّه تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ مَنعٌ للنَّبيِّ ﷺ مِنْ طاعَةِ الكُلِّ، لِأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250 - 251.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 305، بتصرف.

كُلَّ مَنْ يَأْمُرُ النَّبيَّ ﷺ بِأمْرٍ أمْرَ إيجابٍ، مُعْتَقِدًا عَلَى أنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ يُعاقِبُهُ بِحَقٍّ: يَكونُ كافِرًا، سواءً كان مُجاهِرًا بكفرِه أو منافِقًا به[1].

توجيه متشابه النهي عن الطاعة:

الانشغالُ بالمهامِّ والأعمال النافعة أهمُّ من الردِّ على أذى الكافرين والمنافقين

تكرر النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين بعد مفتتح سورة الأحزاب في الآية الثامنة والأربعين من السورة نفسِها، في قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: 48]، وجاء ذلك في سياق توجيه القرآن رسولَ الله إلى المهامّ المنوطة به، والتي منها المداومة على عدم طاعتهم والاستماع إليهم في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: 45 - 48]، عقبَ إرجاف المنافقين وإيذائهم رسولَ الله ﷺ بالكلام في قضيّة زواجه من السيدة زينب بنت جحش، مُطلَّقةِ ابنِه بالتبنّي: زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاهما، فكان من الضروريِّ التذكيرُ بذلك ليمضي الرسول في طريقه، ويقومَ بمهامّ رسالته، غيرَ عابئٍ بكلامهم، ولا مكترث بأذاهم؛ ومن هنا تتّضح علّة زيادة القيد ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، لاقتران الموقف بهذه الحادثة البائن أذاها.

نكتة الفصل في الآية:

الثقةُ في علم الله وحكمتِه مِنْ بواعثِ التزام أوامرِه واجتنابِ نواهيه

جاءت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مفصولةً عن أوّل الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، لأنّها بمثابة التعليل لِما سبقها من أمرٍ بالتقوى، ونهيٍ عن طاعة الكافرين والمنافقين، ببيان صدورهما من إلهٍ يتّصف بالعلم والحكمة، أي: (إنّ اللهَ حَقيقٌ بِالطّاعَةِ لَهُ دونَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ، لِأنَّهُ عَليمٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 154.

حَكيمٌ، فَلا يَأْمُرُ إلّا بِما فيهِ الصَّلاحُ)[1]؛ وهذا ما يساعد على امتثالهما، والالتزام بهما، كما هي عادة البيان القرآنيّ في إردافه الأمرَ والنّهيَ بما يُعين عليهما.

ويُمكن أنْ يكونَ سببُ الفصل: ما بين الجملتين مِن الاختلافِ في الخبر والإنشاء فيما يسمى كمال الانقطاع، الذي تنفصلُ به الجملُ لفظيًّا، ولكنّها لا تنقطع عن بعضها معنويًّا.

غرَض تتابع المؤكّدات:

جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾ وبالجملة الاسميّة وبفعل الكينونة الماضي، لتقوية معنى علم الله ببواطن هؤلاء، وحكمتِه البالغة في النّهي عن طاعتهم، ما مِنْ شأنِه توكيدُ الامتثال لِما أمَر به، وتقويةُ الاجتناب لِما نَهَى عنه.

تقوية علم الله ببواطن الأمور، وتأكيد حكمته في النهي عن طاعة هؤلاء

بلاغة العدول إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهَ﴾:

كان مُقتضى الظاهر أنْ يُقال: (إنّه كان عليمًا حكيمًا)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن التعبير بالضمير إلى التعبير باسم الجلالة العَلَم: ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، الذي يُستعمل في مواضعِ التأليه والتعظيم، وسبب هذا العدول أنّ التعبير بالاسم الأعظم يحقّق المهابةَ والإجلالَ في نُفوس الخلق، ويدفعهم إلى الامتثال والالتزام؛ لا سيما فيما يتّصلُ برفض طاعةِ الكافرين والمنافقين، الّذين يزيّنون كلامَهم، ويَبْدون فيه ناصحين مُخلِصين حريصين على مصلحة المسلمين، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

التعبيرُ باسم الجلالة يدفع النُّفوسَ إلى الامتثال والالتزام

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على الخبر:

في التعبير بفعل الكينونة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ دلالةٌ على أنّ العِلمَ بحقائقِ الخلق، والحكمةَ في الأوامر والنّواهي: من صفات الله تعالى الأزليّة، وسِماتِه الأبديّة، التي لا تتبدّل

العِلْمُ والحكمةُ مِنْ صفات الله الأزليّة الأبديّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

ولا تتغيّر، ولا تخطيء في حالة من الحالات؛ ممّا يستلزم ضرورةً الاطمئنانَ إلى أمره بالتقوى ونهيِه عن طاعة الكافرين والمنافقين.

فائدة تذييل الآية بوصفَي العلم والحكمة:

أوثِر الإخبارُ عن الله تعالى بوصفَي العلم والحكمة، وتذييل الآية بهما في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: لمناسبتهما الأمرَ بالتقوى، والنّهيَ عن طاعة الكافرين والمنافقين تمامَ المناسبة؛ فوصف العلم يدلّ على علمه سبحانه بفوائدِ التقوى في امتثال الأوامر واجتناب النّواهي وغيره، كما يدلّ على علمه بما تنطوي عليه نفوس الكافرين والمنافقين تُجاهَ الرسول وأتباعه؛ ووصف الحكمة يدلّ على إحاطته بالمصالحِ والمفاسد، ومِن ثمّ فلا يأمرُ إلّا بما فيه مصلحةٌ، ولا ينهى إلّا عمّا فيه مضرّةٌ ومَفسدةٌ.

اللهُ تعالى عليمٌ بالمصالح والمفاسد، حكيمٌ في الأوامر والنواهي

الغرض من مجيء الوصفين بصيغة المبالغة:

جيء بالوصفين الجليلين في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بزِنَة (فَعيل) للإبلاغ في اتّصاف الله تعالى بهما، والدّلالةِ على أنّ الخلق مهما بلغوا فيهما فلن يبلغوا مبلغَه، أو يقتربوا من حقيقة اتّصافه بهما، لأنّ علمَهم - مهما كان - قليلٌ، وحكمتَهم - مهما بلغت - قاصرةٌ، ما يعني تمامَ الافتقار إلى الله، وضرورةَ التسليم لِما يأمر به وينهى عنه؛ فالمعنى: "﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالِغًا في العلمِ والحكمةِ، فيعلمُ جميعَ الأشياءِ من المصالحِ والمفاسدِ، فلا يأمرُك إلا بما فيه مصلحةٌ، ولا ينهاك إلا عمّا فيه مفسدةٌ، ولا يَحكُم إلا بما تقتضيهِ الحكمةُ البالغةُ"[1].

عِلمُ الناسِ قليلٌ مهما كان، وحكمتُهم قاصرةٌ مهما بلَغَتْ

نكتة تنكير الوصفين ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

أوثر التعبير بالوصفَينِ الجليلَينِ في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.

﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ نَكِرتَين مُنَوّنتين، لما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التفخيم والتعظيم؛ كما أنّ تكوينَهما من صيغةٍ تشتمل على حَرْفَيْ مدٍّ في وسَط الكلمة وآخرَها يدلُّ على اتّساعِهما وشُمولِهما كلَّ الأمور، ومُختَلفَ الأحوال، وأنّه لا مدى لهما ولا حدودَ لاتِّساعهما.

لا حُـدودَ لِعِلم الـلـه تـعـالى وحِكمتِه

نكتة تقديم العلم على الحكمة:

قَدَّمَ النظمُ الكريمُ وصفَ العلم على الحكمة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لأنّ العلمَ مِنْ مُؤهّلات الحكمة، ومن المعينات على تحقُّقِها وحصولِها، فلا حكمةَ لدى أحدٍ مِنْ دون علمٍ.

لا حـكـمـةَ لـدى أحـدٍ مِـنْ دون علمٍ

فائدة العطفِ بالواوِ ﴿وَٱتَّبِعْ﴾:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لعطف الأمر باتّباع الوحي على الأمر بالتّقوى والنّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ وهو من عطف العامّ على الخاصّ، لزيادة التقوية والتقرير، وكأنّه أمرٌ ثالثٌ بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، لدخوله في الأمر باتِّباع الوحى[1].

تقوية النّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين

الغرض من الأمر بالاتّباع:

أمْرُ النّبي ﷺ باتّباع الوحي النازلِ إليه مِنَ الله في قوله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يُقصَدُ منه حثُّه على المداومةِ على ذلك، وإلهابُه وإثارتُه إلى الاستمرار عليه؛ لأنّ مخالفتَه ﷺ ما يوحى إليه أمرٌ غيرُ حاصلٍ أبدًا، وغيرُ مُمكنٍ منه، لِما خُصَّ به من العِصمة الرّحمانيّة، والعنايةِ الربّانيّة.

مخالفةُ النّبيّ ما يوحَى إليه أمرٌ غيرُ مَعْهودٍ مِنه وغَـيـر مَـعْـروفٍ عَنه

بلاغة الاستعارة في الأمر بالاتّباع:

في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، شُبِّه فيها الالتزامُ بما في وحي الله تعالى من

وَحْيُ الله تعالى هو العاصمُ مِنَ الزَّيغ، الحافِظُ مِنَ الخديعة

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 51.

أوامرَ ونواهٍ وتوجيهاتٍ بالاتِّباع، الّذي يعني: تَتَبُّع آثار الأشياء[1]، بجامع الاهتداء والوصول إلى المقصود في كلٍّ؛ ثمّ حُذف المشبّه واستُعير الاتّباع للالتزام بالوحي والعمل به على سبيل الاستعارة التَّصريحية، الداعية إلى تَتَبُّع ما في كتاب الله تعالى، وشدّة التمسك به، لأنّه العاصمُ من الزيغ، الحافظُ من الخديعة بما يُزَيِّنُه الكُفّارُ والمنافقون، والهادي إلى سواء السبيل.

معنى ﴿مَا﴾:

تفخيمُ الوحي وتعظيمُه وشمولُه كلَّ ما يوحى إلى النبي من أوامرَ ونَواهٍ

﴿مَا﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ اسمٌ موصول عامٌّ في محلّ نصب مفعول به، يدلّ ببنائه المشتمِل على حرفِ مدٍّ في آخره: على تعظيم الوحي وتفخيمه، وبمعناه: على شمولِه كلَّ ما ينزل إلى الرسول ﷺ من الوحي وعمومه؛ ويدخل فيه الأمرُ بتقوى الله والنهيُ عن طاعة الكافرين والمنافين دخولًا أوّليًّا برهانيًّا.

نكتة صيغةِ الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

لا يخفى على أحدٍ مصدرُ ما يوحَى إلى النبيِّ ﷺ

جيء بالفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه، لأنَّ الاهتمامَ مُنْصَبٌّ على الأمر بالاتّباع، وعدمِ الإنصات لغير وحي الله تعالى، ولأنَّ فاعلَ الإيحاءِ ومصدرَه معلومٌ ومعروف، وهو الله ﷻ؛ والمعنى: (لا تُنْصِت للكافرين والمنافقين، واتَّبِعِ الوحيَ النازل إليك مِنْ عند الله ﷻ).

دلالة التقييد بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

النبيُّ منتهى الوحي الربّانيّ، وقدوةٌ للمسلمين مِثاليّ

جاء تقييدُ فعلِ الإيحاء بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، وفي ذلك تشريفٌ للنبيِّ ﷺ، وتكريمٌ له من خلال خطابِه وتذكيره بأنّه اختير دون غيره لتلقّي وحي الله تعالى، وأنّ هذا الوحي لا ينتهي إلّا إليه، وأنّ عليه أنْ يظلَّ قدوةً

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

للمسلمين في تعظيمه وتقديره باتّباعه والعمل بموجبه، وعدم الإنصات لكلامِ غير كلام الله، لأنَّه الأحقُّ والأجدرُ بالإنْصات والاتّباع.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ حرفُ جرٍّ لابتداء الغاية، والجارُّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَۚ﴾ وقعا في محلّ نصبِ حالٍ من ضمير نائب الفاعل المستترِ في قوله ﴿يُوحَىٰٓ﴾؛ وتدلُّ ﴿مِن﴾ في الآية على أنّ مصدر الوحي الذي ينتهي إلى الرسول، والذي يُؤمَر باتّباعه: هو اللهُ ﷻ، ما يعني ضرورةَ إنزالَه المنزلةَ اللائقةَ به، لكونه مِنْ عند الله جلّ في علاه.

ما كان مصدرُه من الله فهو أحقُّ أن يُتَّبع

غرض التّعبير بلفظ الربوبيّة وإضافتِه:

جيءَ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ بعنوان الربوبيّة مضافًا إلى الضّمير العائد على النبيّ ﷺ، "والتعرّض لِعُنوان الربوبيّة لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر"[1]، و"لتشريف النبيِّ ﷺ وتكريمه، بإضافة ضميره إلى اسم الجلالة، ولبيان أنَّ الغرضَ الرئيسَ من الأوامر والنواهي التي يشتمل عليها الوحيُ النازل إليه هو التربية والتعليم، والتوجيه إلى ما فيه المصالح والمنافع، والتحذير والتنفير ممّا فيه المضارّ والمفاسد"[2].

وحيُ الله فيه التربية والتوجيه للمصالح والتنفير مِن المفاسد

علّة الفصل في الآية:

جاءت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ مفصولةً عمّا قبلها ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، لأنّها كالتعليل الموضِّح سببَ الأمر باتّباع الوحي النّازل إلى الرسول ﷺ مِن عند الله ﷻ؛ ومن ثمّ فُصلت عن سابقتها كما يُفصل الجواب عن السؤال، فيما يسمّى شِبهَ كمال الاتّصال، الذي تتولّد فيه الجملة الثانية من الأولى كما يتولّد

خُبْرُ الله موجِبٌ اتّباعَ ما يصدُر منه وحيًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 306.

الفرعُ من الأصل، ويحتملُ أنْ يكونَ سببُ الفصل: ما بين الجملتين مِن الاختلافِ في الخبر والإنشاء، فيما يسمَّى كمالَ الانقطاع، الذي تنفصلُ به الجملُ لفظيًّا، ولكنّها لا تنقطع عن بعضها معنويًّا.

غرض تتابُعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

الترهيبُ من عدم اتّباع الوحي، والتخويفُ مِنْ عِقابِه

جاء قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميّة، وتقديمِ الجارّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿خَبِيرًا﴾: لتوكيد إحاطة الله تعالى علمًا وخُبْرًا بمُتّبعي الوحي مِن خَلقه، وتوكيدِ إحاطته عِلمًا وخُبْرًا بمخالفيه، فيجازي المتّبعين خيرًا، ويعاقب المخالفين بما يناسب جرائمَهم؛ "فكأنه قيل: (إن الله خبيرٌ بما تعملونه من الامتثال وتركه، فيرتَّب على كلٍّ منهما جزاءَه وعقابَه)"[1]، ووجهُ اقتضاء المقام ذلك أنْ يبلغ الترهيبُ من عدم اتّباع الوحي منتهاه، فيحصل الامتثالُ للأمر والنهى دون تردّد أو اجتهاد خاطئ يبيح للمسلمين أن يستمعوا أو يجتمعوا ويستشيروا الكفّار أو المنافقين في يومٍ من الأيّام.

بلاغة إظهار الاسم الأعظم:

الله تعالى هو الذي سيتولّى حسابَ الناس على ما يعملون

كان مقتضى الظاهر في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أن يُقال: (إنّه كان بما تعملون خبيرًا)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن التعبير بالضمير إلى التعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، تربيةً للمهابة والإجلال في نفوس الخلق، لاسيّما فيما يتَّصلُ باتِّباع الوحي، وعدمِ الاستماع والانخداع بما يقولُه الكفّارُ والمنافقون ويزيّنونه، "مذكرًا بالاسم الأعظم بجميع ما يدلّ عليه من الأسماء الحسنى، زيادةً في التقوية على الامتثال، مؤكِّدًا للترغيب"[2]؛ ولِما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 282.

فيه مِنْ إشعارٍ بأنَّ اللّهَ هو الذي سيتولّى حسابَ خلقِه على ما يعملون بصفة عامّة، وعلى عدم اتّباعهم الوحيَ بصفة خاصّة.

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على الخبر:

في دخول فعل الكينونة على خبر الحرف الناسخ ﴿إِنَّ﴾ من قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ دلالةٌ على أنّ إحاطة الله تعالى علمًا وخُبرًا بما يصدر عن خلقه من أفعال وأعمال، وما يقف وراءها من أغراض وأسباب: من صفات الله الأزليّة الأبديّة، التي لا تتبدّل ولا تتغيّر.

الخِبرةُ بأفعالِ الخلق وأسبابِها مِنْ صفاتِ الله الأزليّةِ الأبديّةِ

معنى الباءِ في قوله ﴿بِمَا﴾:

الباء الداخلة على الاسم الموصول في ﴿بِمَا﴾ من قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وهو أصل معانيه[1]؛ وفي التعبير به دلالةٌ على أنّ عِلمَ الله تعالى وإحاطةَ خبرته بحقيقة ما يفعلُه خلقُه من الأعمال التي اختصَّ بها نفسَه، ولم يوكِّل بها أحدًا من الملائكة أو غيرهم؛ وفيه من الترهيب ما يكفي لامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

الإحاطةُ بأفعال الخلق وأسبابِها مِـنَ الأعـمـال الّتي اخْتَصَّ اللهُ بها نفسَه

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

عبّر النظمُ الكريمُ بصيغة المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لِما يمتاز به من الدلالة على الاستمرار التجدديّ؛ أي أنَّ اللّهَ تعالى خبيرٌ بما يتجدَّدُ مِنْ أعمال خلقه بصفة عامّة، وما يتجدَّدُ منها في اتّباع الوحي وعدم اتّباعه بصفة خاصّة؛ كما أنَّ إحاطته علمًا وخُبرًا بحقيقة الأسباب التي تدفعهم إلى القيام بهذه الأعمال مُتَجَدِّدَةٌ بتجدُّدِها.

اللـهُ تعالى عليمٌ بكلِّ ما يتجدَّد فعلُه، خبيرٌ بأسبابِه ودوافِعِه

نكتة تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

قَدَّم النظمُ البليغ الجارَّ والمجرورَ المصحوبَ بجملة الصلة ﴿بِمَا

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 36.

تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿خَبِيرًا﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لما يُفيده التقديمُ مِنَ الاهتمام ببيان أنّ جميع الأعمال التي حصلت والتي ستحصل غيرُ خافيةٍ على الله تعالى، كما أنّ الأسبابَ الدافعة إليها والنوايا الباعثةَ عليها مرصودةٌ معروفةٌ، لا يعزُب شيءٌ منها عن إحاطة ربّ العالمين العليمِ الخبير.

لا تخفى على الله الأسبابُ الدافعةُ إلى الأعمال، والنّوايا الباعثةُ عليها

دلالة الانتقال من خطاب الرسول إلى خطاب الأمّة:

كان مقتضى الظاهر - جريًا على مخاطبة الآيات للنبيّ ﷺ - أنْ يُقال: (إن الله كان بما تعملُ خبيرًا)، لكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن خطابه إلى خطاب أمّته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، "لتنزيه الرسول والارتفاع به عن أن يكون مظِنَّة عصيان الوحي، وقبولِ نصيحة الكافرين والمنافقين والخديعة بأقوالهم"[1]؛ وفيه أيضًا "إيماءٌ إلَى أنَّ فيما سَيَنْزِلُ مِنَ الوَحْيِ ما يَشْتَمِلُ عَلَى تَكْليفٍ يَشْمَلُ تَغْييرَ حالَةٍ كانَ النَّبي ﷺ مُشارِكًا لِبَعْضِ الأُمَّةِ في التَّلَبُّسِ بِها، وهوَ حُكْمُ التَّبَنّي"[2].

تنزيه النبي عن أن يكون مَظِنّة عصيان الوحي

توجيه القراءتَين في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

ثبتت في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءتان متواترَتان، فـ"قَرَأ الجُمْهورُ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ، عَلَى خِطابِ النَّبي ﷺ والأُمَّةِ، لِأنَّ هَذا الأمْرَ أعْلَقُ بِالأُمَّةِ، وقَرَأ أبو عَمْرٍو وحْدَهُ (بِما يَعْمَلونَ) عَلَى الغَيْبَةِ، عَلَى أنَّهُ راجِعٌ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ، شامِلٌ لِلْمُسْلِمينَ والكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ ليُفيدَ مَعَ تَعْليلِ الأمْرِ بِالاتِّباعِ تَعْريضًا بِالمُشْرِكينَ والمُنافِقينَ بِمُحاسَبَةِ الله إيّاهُمْ عَلَى ما يُبَيِّتونَهُ مِنَ الكَيْدِ، وكِنايَةً عَنْ إطْلاعِ الله رَسولَهُ عَلَى ما يَعْلَمُ مِنْهُمْ في هَذا الشَّأْنِ"[3].

من عظيم قدرة الله سبحانه اطّلاعُه على جميع أعمال الناس

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 307.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 252.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 253، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 451.

فائدة تذييل الآية بالوصف ﴿خَبِيرًا﴾:

إثارة النفوس إلى أنْ تذهبَ في مجال الثواب والعقاب كُلَّ مَذْهب

إيثار الإخبار عن الله بالوصف ﴿خَبِيرًا﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، الدالِّ على "معرفتِه ﷻ ببواطن الأمور"[1]، وتذييلُ الآية به: يدفع النفوسَ إلى الحذَر والصدق عند الإقدام على أيّ عمل من الأعمال، سواء أكان هذا العمل ممّا أمَرَ الله به، أم كان مما نهى عنه وحذّر منه؛ ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا أمرُه باتّباع الوحي ونهيُه عن طاعة الكافرين والمنافقين، لأنَ التذييل بهذا الوصف يجعل النفوس تذهب في مجال الثواب على الامتثال والعقاب على العصيان كلَّ مذهب، ويتيحُ للعقل أنْ يتصوّر ما يشاء في هذا السياقِ الحافلِ بالترغيب والترهيب.

غرَض المبالغة في صيغة ﴿خَبِيرًا﴾:

التحذير من التّهاون في اتّباع الوحي

جاء خبرُ ﴿كَانَ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ بزنة (فَعيل): ﴿خَبِيرًا﴾، وفي ذلك إبلاغٌ في اتّصاف الله تعالى بهذه الصفة، وتحذيرٌ شديدٌ من التهاون في عدم اتّباع الوحي، أو في اتّباع بعضه وترك بعضه الآخر؛ وفيه كذلك تخويفٌ شديدٌ من الاجتراء على طاعة الكافرين والمنافقين والتّساهُل فيه، تحتَ أيِّ مُسَمًّى، وبأيِّ حجّة من الحجج الواهية التي تَظْهر في كل عصر من العصور، لأنّ هذه الصيغة تؤكّد إحاطةَ الله تعالى عِلمًا وخُبرًا بحقائقِ هذه الأسباب، ومدى صدق الفاعلين أو كَذِبهم فيها.

نكتة تنكير ﴿خَبِيرًا﴾:

لا حدودَ لإحاطة الله تعالى علمًا وخُبرًا بحقائقِ الأمور وأسبابها

أوثر التعبير بالاسم الجليل ﴿خَبِيرًا﴾ نكرةً مُنَوّنةً في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، لِما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التفخيم والتعظيم؛ كما أنّ بناءَه بصيغةٍ تشتمل على حَرْفَيْ مدٍّ في وسط الكلمة وآخرها يدلّ على اتّساع معناه وشموله كلَّ الأعمال

(1) الراغب، مفردات القرآن: (خبر).

ومُختَلف الأسباب، وأنّه لا مدى لخبرته، ولا حدودَ لاتّساعها، ولنْ يبلغَ أحدٌ مداها أو يقْتربَ مِن حقيقتها.

معنى واوِ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ لعطف الأمر بالتوكّل على الأمر باتّباع الوحي، لكون الآدميِّ في أشدِّ الحاجة إلى تعظيم الترجية[1].

دلالة الأمر بالتوكّل:

صفةُ المؤمنِ: التوكّل على الله في كلّ الأعمال، والالتجاء إليه في كلّ الأحوال

الأمر بالتوكّل على الله يعني: تفويضَ جميع الأمور إليه، وتركَ الاعتماد على التدبير، والاعتمادَ عليه سبحانه، لأنّه المحيطُ بكلّ الأفعال، القادرُ على كلِّ الأشياء[2].

وليس المقصودُ من الأمر به في قول الله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إحداثَ التوكّل على الله، لأنّ النبيّ ﷺ لا يُتصوَّر منه نسيانُ هذا الأمر المُهِمِّ في جميع أعماله، أو تجاهلُ القيام به، والاعتمادُ على نفسه أو على غير الله؛ ومن ثمّ، فالغرض من الأمر في هذا السياق هو ما سبقت الإشارة إليه في الأمرَينِ السابقين، من التهييج والإثارة والحثّ على المداومة على التوكّل على الله، والالتجاء إليه، وطلبِ العونِ والتوفيقِ منه في كلّ المهامّ والأعمال.

الاستعانةُ على تقوى الله واتّباعِ وحيِه والصبرِ على الأذى فيه: بالتوكّل عليه

كما أنَّ الأمر بالمداومة على التوكّل على الله وتفويضِ كلِّ الأمور إليه في هذا السياق فيه إرشادٌ إلى ما يُعين على الامتثال لما سبقه مِنْ أوامرَ ونواهٍ؛ لأنّ الإنسانَ لا يستطيع فِعْلَ أيِّ شيء أو تركَه إلا بتوفيق الله، فلا بدّ إذنْ من التوكّل عليه، ليتحقّق الالتزامُ بما أمر به، والاجتنابُ لما نَهى عنه؛ وفيه أيضًا "زيادَةُ تَمْهيدٍ وتَوْطِئَةٍ لِتَلَقّي تَكْليفٍ يَتَرَقَّبُ مِنْهُ أذًى مِنَ المُنافِقينَ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: إنَّ مُحَمَّدًا نَهَى عَنْ تَزَوُّجِ نِساءِ الأبْناءِ وتَزَوَّجَ امْرَأةَ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ حارِثَةَ"[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 253.

نكتة إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار:

اسمُ الجلالة جامعٌ لكلّ المعاني التي يُحتاج إليها في مُختلف الأحوال

كان مقتضى الظاهر أنْ يُقال: (وتوكَّل عليه)، لكنّ النظمَ الكريمَ عَدَلَ عن تعديَة فعلِ التوكُّل للضمير إلى تعديته لاسم الجلالة العَلَم، فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، لِما يجتمِع في الاسم الأعظم من معاني الألوهيّة والربوبيّة الكافية المانعة المُحقِّقَة كلَّ ما يحتاج إليه أيُّ واحدٍ من خلقه، مهما كان وكيف كان، والمعنى: "(اعتمدْ على الله المُحيطِ عِلمًا وقُدرةً)؛ ولتكرير هذا الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء في هذا المقام شأنٌ لا يَخفى"[1].

معنى واوِ ﴿وَكَفَىٰ﴾:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ استئنافيّة، جيء بها للتنبيه على أنّ الاعتمادَ على الله تعالى في كلِّ الأمور يكفي العبدَ، ويساعدُه في تحقيق ما يُريد.

بلاغة التّضمين في قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

كفايةُ الله تعالى عبدَه من الأمور البَدَهيّة المُسلَّمِ بها

يُمكن أنْ يُضَمَّن الفعلُ الماضي ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ معنى فعلِ الأمر (اكتَفِ)، ويقوّي ذلك تعديةُ الفعل إلى المعمول بواسطة حرف الباء، فيكون المعنى: (وتوكّل على الله، واكتفِ به وكيلًا لأنّه لا أكْفى منه)، وآثر البيان القرآنيّ التعبير عن ذلك بصيغة الماضي لأنَّ مجيءَ المعنى في صورة الخبر يجعله من المُسَلَّمات البدهيّة، التي يجب على المخاطَب أنْ يتلقّاها بالثقة والقبول والامتثال من غير شكٍّ أو تردُّدٍ؛ ثمّ أنّ في التضمين اجتماعًا للمعنيين: معنى الفعل مجرّدًا، ومعناه الذي يُتوصّل إليه بحرف الباء، فيكون المعنى: (اكتفِ بالله يكفِك).

غرض إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

كان مقتضى الظاهر أنْ يُقال: (وتوكل على الله وكفى به وكيلًا)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

بإضمار اسم الجلالة، لكنّ البيانَ الكريم عدلَ عن التعبير بالضمير إلى التعبير بالظّاهر: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ وذلك للتفخيم، والتعظيم، والثقة، والتطمين، ومثلِ ذلك من المعاني التي يتطلّبُها مقامُ الأمر والنهي بصفة عامّة، ومقامُ الأمر بالتوكّل على الله وتفويض الأمر إليه بصفة خاصّة، لِما اجتمعَ في الاسم الأعظم من كلّ معاني الكفاية والوقاية المانعة والمحقِّقة كلَّ ما يحتاج إليه مَنْ يتوكَّلُ عليه، فـ"الإظهار في مقام الإضمار للتعظيم، ولتستقلَّ الجملةُ استقلالَ المثل"[1].

في التعبير بالاسم الأعظم اطمئنانٌ وثقةٌ للمتوكِّل على الله

نكتة تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾ واختيارِ صيغة المبالغة:

أوثر تنكيرُ ﴿وَكِيلًا﴾ وتنوينُه في قول الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لما يفيده التنكير والتنوين من التعظيم، ولما يُفيده من العموم والشمول، الذي يجعل نفس المأمور بالتوكّل تذهب في مجالات الكفاية كلَّ مذهب، وتتصوّر كلَّ ما يُمكنها أنْ تتصوّر، وكأنّ المعنى: (إذا توكلْتَ على الله كفاك اللّهُ كلَّ شيء أيًّا كان، ومهما كان، وحيثما كان)؛ يُقوّي ذلك مجيءُ الوصف الجليل بصيغة (فَعيل)، الدالّةِ على أنَّه لا حدودَ لكفايته سبحانه، ولا يُمكن لأحدٍ أنْ يبلغَ مداه فيها.

الله تعالى يكفي مَنْ توكّل عليه كُلَّ شيء، أيًّا كان، ومهما كان

فإيثار التعبير بالوصف ﴿وَكِيلًا﴾، وتذييلُ الآية به: يؤكّد معنى الاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمور كلِّها إليه، ويقوّيه، لأنّ معناه كما قال البقاعي: "(لا أكفى منه لكلِّ مَنْ وكَّله في أمرَه)؛ فلا تلتفتْ في شيء من أمرك إلى شيء، لأنَّه ليس لك قلبان تُصرِّف كُلًّا منهما إلى واحدٍ"[2].

بلاغة التّرتيب في الآيات:

إنّ الأوامرَ والنواهيَ في الآيات، من قولِ الله تعالى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 142.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وقوله ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، وقوله ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: وارداتٌ على نَسَقٍ عجيبٍ وترتيبٍ أنيق؛ فإنّ الاستهلالَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على أنّ الخطابَ مُشتملٌ على التنبيهِ على أمرٍ مَعْنيٍّ بشأنه، لائحٍ فيه معنى التهييجِ والإلهابِ؛ ومِنْ ثمَّ عُطِفَ عليه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾، كما يُعْطَفُ الخاصُّ على العامِّ؛ وأُرْدِفَ النَهْيُ بالأمرِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على نحوِ قولِك: لا تُطِعْ مَنْ يخذُلُك، واتَّبعْ ناصِرَك؛ ثُمَّ أُمِرَ بالتوكُّلِ، تشجيعًا على مخالفةِ أعداءِ الدينِ، والتجاءً إلى حَرَمِ جلالِ اللّه ليكفيَه شرورَهم.

بديع التناسق وفريدُ التناسب في الآيات: مرسِّخٌ لما تحمله من المعاني

ثُمَّ إنّه عُقِّبَ كلٌّ من تلك الأوامرِ على سبيلِ التتميم والتذييلِ بما يُطابقُه: فعُلِّلَ النّهيُ عن طاعة الكافرين والمنافقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: (اتّقِ اللّه فيما تأتي وتَذَرُ في سِرِّك وعلانيتِك، لأنّه عليمٌ بالأحوالِ كُلِّها، يجبُ أن تحذَرَ مِنْ سَخَطِه، حكيمٌ لا يُحِبُّ متابعةَ حبيبِه أعداءَه)؛ وعُلِّلَ أمرُه باتّباع الوحي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ تتميمًا أيضًا، أي: (اتَّبِعِ الحقَّ، ولا تَتَّبِعْ أهواءهم الباطلة وآراءَهم الزائغةَ، لأنّ اللّه يعلَمُ عَملَكَ وعَمَلَهم فيُكافِئُ كُلًّا بما يستحِقُّه)؛ وذُيِّلَ الأمر بالتوكّل على اللّه بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ تقريرًا وتوكيدًا، بمعنى: (مِنْ حَقِّ مَنْ يكون كافيًا لكلِّ الأمورِ، حَسيبًا في جَميع ما يرجِعُ إليه: أن تُفَوَّضَ الأمورُ إليه ويُتوكَّلَ عليه)[1].

دلالةُ مجيء النهي مَحوطًا بالأوامر المذكورة:

خطرُ الكفّار والمنافقين لا يدفعُه إلا الاحتماءُ بالله تعالى والتقرّبُ إليه

مجيء النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين في هذه الآيات مَحوطًا بالأمر بتقوى اللّه والأمرِ باتّباع وحي اللّه تعالى: يَدُلُّ على حرص القرآن على تنبيه النبيّ ﷺ والمسلمين إلى خطورتهم

(1) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 12/ 376.

وضرورة الاحتراس منهم والاستعانة باللّه تعالى عليهم؛ كما أنّه يُشعر بتربّصهم للإيقاع بين المسلمين، وتشكيكهم فيما ينزل إلى الرسول من وحي، وهذا ما وضّحته السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 12].

وجاء النهيُ عن طاعتهم مصحوبًا بالأمر بالتوكُّل على اللّه، ليؤكِّد ما سبق من ضرورة الاستعانة باللّه تعالى على كيدهم ومكرهم؛ كما أنّه يرشد إلى ما يعين على امتثال ما سبق من نهي وأمر، "فإنّ القلب إذا أحسن التوكّل على اللّه، وصدق إحساسُه بكفاية ربّه، تتكوّن فيه طاقةٌ هائلةٌ، تمدُّه بزادٍ لا ينفد في مواقفه الصعبة، وأخذه نفسَه على طريق الجِدِّ النّافع"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوكيل والكفيل والضامن:

يَدُلُّ لفظ (الوكيل) على اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أمرِكَ؛ ومنه التَّوكُّلُ، وهو: إظْهارُ العَجْزِ في الأمرِ والاعْتِمادُ على غَيْرِكَ.

ويدلّ لفظ (الكفيل) على التزام نفس المَكْفول بِهِ؛ ومِنْه: كفلت الغُلامَ، إذا ضممتَه إليك، ولا تَقول: ضمِنته، لِأنَّك إذا طولبت بِهِ لزمك تَسْليمه، ولا يلزمك تَسْليم شَيْء عَنهُ، وفي القُرْآن: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، ولم يقل: ضمنها.

أما الضّامن فإنه يكون بالمال؛ ومن الدَّليل على أنّ الضَّمان يكون لِلْمالِ والكَفالَة للنَّفس أنَّ الإنْسان يجوز أن يضمَن من لا يعرفهُ، ولا يجوز أن يكفل من لا يعرفهُ، لِأنَّهُ إذا لم يعرفْهُ لم يتَمَكَّن من تَسْليمه، ويصِحّ أن يُؤَدّيَ عَنهُ وإن لم يعرفْهُ[2].

ولما كان قصدُ الآيات التوجيهَ إلى الاعتماد على اللّه تعالى، وتفويضِ الأمور كلها إليه وعدم الاعتماد على أحد من الكافرين أو المنافقين: أوثر التعبير بوصف (الوكيل) لأصالته في الدّلالة على ذلك.

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 363.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 207.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»